الطائف حركة تجدّد الطوائف

كثيرة هي الأفكار التي تربط أفكار جيل ما بعد الحرب بأفكار الجيل الذي عايشها. وما افترض أنه دولة طائفة بعينها، لم يكن سوى دولة للطوائف مجتمعة، وما سوى ذلك وهم.

ما نناقشه في جامعتنا، يدفعنا الى قراءة التاريخ بحقباته الماضية وحقباته الراهنة، لأن في ذلك عوامل مساعدة لإدراك حقيقة المجتمع اللبناني وخصوصيته.

فالحرب الأهلية الاخيرة لم تكن فريدة في بابها لبنانيا وممرها الطائفي أوصلنا الى حال الاستقلال بعد فترة العام ١٩٤٣ الاستقلالية.

لقد فصل لنا استقلال على مقاس تركيبتنا اللبنانية، وعلى مقاس مجتمعنا الهش. بذلك أرضيت شرائح من البورجوازية المحلية وتأمنت مصالح الامبريالية الوافدة إلينا في ثياب التقنية والمعاصرة، والاقتصاد و... الديموقراطية، علما ان نسختنا اللبنانية من الديموقراطية لم تكن أكثر من تعايش طوائف وارتضاء توزع حصص يرتبط بمكانة هذه الطائفة او تلك في التشكيلة اللبنانية. هل نقول في ذلك غير ان الطائفية والديموقراطية لا تجتمعنان؟ ونزيد: هل حققنا وفاقنا الوطني حقا؟ وهل رسخنا سلمنا الاجتماعي؟ أم ان الموضوع لا يخرج عن تلفيقة إلغاء مبدأ الصراع الطبقي والاكتفاء بوصفة العيش اللبناني السحرية؟

لقد فرضت علينا التبعية الاقتصادية، وفرض علينا الاستلاب الثقافي، وفي مواجهة ذلك علقنا همومنا على مشجب الاستعمار، من دون ان نذهب الى طرح سؤال: ما مسؤوليتنا في ذلك.. السؤال صعب والأسهل إلقاء اللوم على الخارج. ذلك نابع من عدم جاهزيتنا لطرح السؤال

ولتصور شكل الجواب ثمة من يقول: ان التاريخ لا يعرف الفراغ. انما السؤال: كيف نملأه؟ ومن يملأه؟ حتى الآن جرى حشو التاريخ بمعادلات طائفية، وجدد نظام الطوائف. ولم يكن الطائف مثلا سوى إعادة انتاج للنظام الطائفي بحصص جديدة. اما الغائب الأكبر فهو الديموقراطية.. ممر مجتمعنا الى مقاربة قضاياه. سواء سميناها استقلالا، او اتفاقا او وفاقا مغيبا.

مثلنا مع فكرة الوفاق الوطني الحالي، كمثلنا مع مثالية هيغل القائلة «بوجود فكرة هي أساس الوجود ومنها يستقي العنصر المادي كينونته» ـ لذا فان الطائفية وتحقيق الوفاق الوطني لا يخرجان عن كونهما فكرة مجردة، وما يحصل في واقعنا اللبناني هو انعكاس لتلك الحركة الذاتية.

خليل رمّال